

الجواهر الدراري في مقتضب سيرة ابن العربي المعافري

د. تاج بالطير، جامعة معسكر

إن للعلماء فضل كبير ومكانة محفوظة في دين الإسلام، فهم ورثة الأنبياء، بهم يعرف الحلال من الحرام، والحق من الباطل، وبهم تقاد الأمة إلى جادة الحق والصواب، فهم أعلام الهدى ومصابيح الدجى. ومن العلماء الربانيين الذين قيضهم الله لخدمة هذا الدين، فحمله على عاتقه، وذبّ عنه تحريف الغالين، وتأويل الجاهلين، وانتحال المبطلين، إمام مفسر جمع أبعاد وأسس التفسير، وتقدّم في علومه وفنونه وحاز أهليته، فقيه ضليع في أصول الأحكام وفروعه، ومحدث حافظ وقف على دقائق علم الحديث رواية ودراية، لغوي نحوي مستبصر، ناقد لروايات التاريخ محصّ لسير والأخبار، المجتهد المالكي ثاقب الذهن أبو بكر بن العربي المعافري.

هو محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن أحمد بن العربي المعافري الإشبيلي المالكي، المعروف بالقاضي أبي بكر بن العربي، فكنيته أبو بكر وأبوه (أبو محمد) من فقهاء إشبيلية وزعمائها السياسيين، قال ابن بشكوال: «الحافظ المستبصر ختام علماء الأندلس وآخر أئمتها وحفّاظها»⁽¹⁾.

مولده ونشأته: ولد ابن العربي المالكي بإشبيلية سنة (468هـ)، في أسرة جمعت بين علوم الدين وبين مناصب الدنيا، فكان أبوه عالماً

⁽¹⁾ - أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، المقرئ، تحقيق مصطفى السقا ورفاقه، ص256.

فقيهاً، شاعراً ماهراً، خطيباً مفوّهاً، تقلّب في المناصب السياسيّة حتى كان وزيراً مفوضاً، ترأس وفد إشبيلية إلى المنتصر العباسي، وكان بصحبته ابنه أبو بكر، فتلفظا في القول، وأحسننا في الإبلاغ، وطلبنا من الخليفة أن يعقد (لابن تاشفين) على المغرب والأندلس، فعقد له وعادا إلى الأندلس، وتبوأ مكانة سياسية مرموقة عند (المعتمد بن عباد)، وجاء في كتاب الأعلام للزركلي: «أبو بكر ابن العربي (468-453 هـ = 1076 - 1148 م) محمد بن عبد الله بن محمد المعافري الإشبيلي المالكي، أبو بكر ابن العربي: قاض، من حفاظ الحديث. ولد بإشبيلية، ورحل إلى المشرق، وبرع في الأدب، وبلغ رتبة الاجتهاد في علوم الدين. وولي قضاء إشبيلية، ومات بقرب فاس، ودفن بها»⁽²⁾.

نشأ ابن العربي في بيئة طيبة جمعت بين أصالة العلم والثقافة، وبين المكانة السياسية، وكان لهذه البيئة الأثر الواضح في صقل شخصيته العلميّة والثقافيّة، والطابع الذي تميّز به فكره واتجاهه وخلقه وقوة شخصيته، والتأثير عليه علماً وتعليماً، حتى غدا إماماً منأمة عصره، شهد له بذلك أصحابالتراجم والمؤرّخون، الذين سطرّوا اسمه في سجلّ الأعلامالخالدين، فالحياة العلمية والثقافية غالباً ما يكون لها ارتباط وثيق بالحياة السياسية، فالشعور بالاستقرار والأمن يهيء الأجواء المناسبة للجِدّ والاجتهاد، وإعمال الفكر والبحث، وبالتالي فهو المناخالملائم للإنتاج العلمي والثقافي، وأما

(2) -الأعلام، خير الدين الزركلي، ج6، ص230.

التفكك السياسي وانعدام الاستقرار وغياب الأمن، والظلم والاستبداد، فكلّها عوامل تؤدي إلى ندرة وشحّ الإنتاج العلمي والثقافي؛ لأنّ التفرّغ للعمل السياسي غالباً ما يكون على حساب التفرّغ للعلم والمعرفة، وهذا في الحالة العادية، كما أنّ العكس قد يكون صحيحاً، والنتيجة قد تكون على خلاف التصور المعهود، فقد يولّد الشعور بعدم الاستقرار، وانعدام الأمن والظلم السياسي والاجتماعي وضعاً معيناً، يفجر بركاناً ثقافياً وعلمياً، يكون وسيلة للتغيير والإصلاح، وتزدهر بالتالي الحركة العلمية، وتشمل النهضة جوانب متعددة من حياة الأمة.

طلبه للعلم:

تقدّم أنّ ابن العربي نشأ في أسرة طيبة جمعت بين المكانة العلمية والسياسية، ولا ريب، فإن هذه مفاتيح العناية بالعلوم الشرعية، كما أولى والد ابن العربي أهمية فائقة لابنه، عندما لحظ فيه شدة الإقبال على العلم والدرس وأدرك عنده حدة الذكاء، وقوة السماع والانتباه، فاصطحبه في الرحلات العلمية، والمهمات السياسية، مع الرعاية والتوجيه، بما كان لذلك أثر واضح في تكوينه العلمي⁽¹⁾.

وبجانب هذه الرعاية الفائقة الواعية، كان ابن العربي يتمتع بمواهب وقدرات وطاقات، دفعته لخوض هذا البحر من العلوم والثقافات المختلفة.

بدأ ابن العربي التعليم في سن مبكرة، وقد أعانه على ذلك تلك المواهب والقدرات الذاتية وسعة الأفق وقوة الذكاء، ثم ما تحلّى به من

(1) - ينظر: ابن العربي الإشبيلي وتفسيره أحكام القرآن، مصطفى إبراهيم المشي، ص: 21.

أخلاق وتربية، تأدب ببلده إشبيلية فقرأ القرآن والقراءات، والحديث واللغة والشعر والحساب، فحذق هذه العلوم منذ نعومة أظافره، وهو يعيش في كنف أبيه، وكان أول من تتلمذ عليه، يقول الشيخ صديق حسن خان في التاج المكلل: «إمام في الأصول والفروع، سمع ودرس الفقه والأصول، وجلس للوعظ والتفسير، وصنف في غير فن، والتزم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حتى أودى في ذلك بذهاب كتبه وماله، فأحسن الصبر على ذلك كله»⁽¹⁾.

هذا وقد تنقل ابن العربي قبل رحلته إلى المشرق في حواضر الأندلس فنزل قرطبة قبله العلم والعلماء آنذاك، وأخذ عن شيوخها وأكابر علمائها، ثم كانت الرحلة إلى المشرق، رحل القاضي أبو بكر للحج في سنة تسع وثمانين وأربعمائة فحج ولقي كثيراً من العلماء في موسم الحج، ثم عاد إلى بغداد مواصلاً أخذه من الشيوخ يجد لا يعرف الفتور، فأخذ عن الأئمة وعلى رأسهم حجة الإسلام أبو حامد الغزالي، وقيد الحديث واتسع في الرواية، وأتقن مسائل الخلاف والأصول والأحكام على أئمة العلم في بغداد⁽²⁾.

أشهر شيوخه:

أخذ ابن العربي العلم عن شيوخ كثر، والتقى بعلماء في حواضر العلم في المشرق الإسلامي، حيث ذكر نخبة من شيوخه الذين لقيهم في المشرق في كتابه أحكام القرآن، من بينهم: الإمام

(1) - التاج المكلل من جواهر مآثر الطراز الآخر والأول، صديق حسن خان، ص 280.

(2) - ينظر: البداية والنهاية، لابن كثير، ج 12، ص 228.

أبو الفضل الجوهري، الشيخ أبو الفتح المقدسي، الإمام أبو بكر الفهري،
الشيخ أبو عبد الله النحوي، الشيخ أبو عبد الله محمد بن عبد الله المغربي،
الشيخ أبو بكر بن النجيب الأسعد، الشيخ الرئيس أبو فهد عبد الرزاق بن
فضل الدمشقي، الشيخ الزاهد أبو بكر أحمد بن علي بن بدران.

تلاميذه:

أخذ عنه جمهور من أعلام الأندلس والمغرب، وأثنوا عليه وعلى
علمه وكفاءته، حيث يعدّ ابن العربي من الأعلام المشهورين في مختلف
العلوم والمعارف، ذاع صيته وطارت شهرته في المشرق والمغرب، بفضل
علمه وتأليفه وتصانيفه، إن عالماً كهذا لا غرو أن يكون قبلة للعلم ومحط
أنظار طلبته، لأن ملازمته للسمع منه، ومداومة الجلوس معه، وتلقي
العلم على يديه هو الطريق الصحيح للتزوّد بالعلم والتّهل من معينه
الصافي، لذا فلا عجب أن يكون لابن العربي تلاميذ قصده، ولازموه،
وأخذوا عنه، ونهلوا من علومه ومعارفه، وحدثوا عنه، ودونوا سيرته،
ومن أبرز هؤلاء: القاضي عياض اليحصبي، وابنه القاضي محمد، وأبو
زيد السهيلي، وأحمد بن خلف الطلاعي، وعبد الرحمن بن ربيع
الأشعري، والقاضي أبو الحسن الخلعي⁽¹⁾.

مكانته العلمية وثناء العلماء عليه.

حظي أبو بكر ابن العربي بثروة علمية هائلة في مختلف فروع
الشريعة الإسلامية من حديث وفقه وأصول وأحكام وأدب وشعر

(1) - تذكرة الحفاظ وذووله، محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تحقيق زكريا عميرات، ج4، ص62.

ولغة، فغدا من أهل التفنن في العلوم متقدماً في جميع المعارف متكلاً في أنواعها، وزيادة على مكانته العلمية اتصف ابن العربي بصفات كثيرة كلها خير وبركة، فقد كان من أهل التفنن في العلوم والاستبحار فيها والجمع لها، متقدماً في المعارف كلها، متكلاً في أنواعها، نافذاً في جمها، حريصاً على أدائها ونشرها، ثاقب الذهن في تميز الصواب منها، يجمع إلى ذلك كله آداب الأخلاق مع حسن المعاشرة، وكثرة الاحتمال، وكرم النفس، وحسن العهد، وثبات الود⁽¹⁾.

يقول ابن بشكوال عنه في كتابه الصلة: «الإمام العالم الحافظ المستبحر ختام علماء الأندلس، وآخر أئمتها وحفاظها... وكان من أهل التفنن في العلوم والاستبحار فيها والجمع لها، متقدماً في المعارف كلها، متكلاً في أنواعها، نافذاً في جميعها، حريصاً على أدائها ونشرها، ثاقب الذهن في تميز الصواب منها...»⁽²⁾.

ويشهد له الذهبي بعلو كعبه في العلم، وتقدمه على أقرانه فيقول: «كان القاضي أبو بكر ممن يقال: إنه بلغ رتبة الاجتهاد»⁽³⁾، حقاً لقد كان ابن العربي شخصية علمية فذة، كان ثاقب الذهن، عذب المنطق، كريم الشمائل، كامل السؤدد، جمع بين غزارة العلم والمعرفة وقوة الشخصية والجرأة في الحق، والثقة بالنفس، والجهاد في سبيل الله.

- الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، ابن فرحون، ج2، ص: 253.⁽¹⁾

- الصلة، ابن بشكوال، ج2، ص: 591.⁽²⁾

- سير أعلام النبلاء، الذهبي، ج20، ص: 201.⁽³⁾

وليّ قضاء إشبيلية، بعدما رجع إليها بثروة علمية هائلة - كما ذكرت كتب التراجم - وكانت حصيلة رحلته العلمية داخل الأندلس وخارجها، وقد جمع بين المعارف، وتكلم في أنواعها، وحرص على نشرها وأدائها، فقام بهذه المهمة أجمل قيام، وكان من أهل الصرامة في الحق والشدة والقوة على الظالمين، والرفق بالمساكين، فحمدت سياسته، ثم صرف عن القضاء، وأقبل على نشر العلم وتدوينه⁽⁴⁾.

تأليفه وتصانيفه

ابن العربي شخصية علمية فذة، جمعت بين غزارة العلم والمعرفة كما سبق، فالتأظر في ترجمته يدرك بوضوح العوامل التي أدت على اتساع ثقافته، وتبحره في مختلف فروع المعرفة سواء أكانت هذه العوامل داخلية تمثلت في أسرته وشيوخ بلده، أم خارجية تمثلت في الرحلة إلى المشرق ولقائه بأكابر العلماء والشيوخ، كما لا ننسى خبرته في تولية القضاء، التي زادت في رصيده العلمي، وحنكته في التعامل مع المستجدات، من خلال هذه العوامل تصدّى ابن العربي للتأليف والتصنيف فجاءت مؤلفاته كحصيلة لتجربته العلمية والعملية.

في التفسير وعلوم القرآن

1- أحكام القرآن

⁽⁴⁾ - ينظر: أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، المقرئ، ج 3، ص 63، الصلة، ابن بشكوال، ج 2، ص: 591.

- 2- أنوار الفجر في التفسير
- 3- واضح السبيل إلى معرفة قانون التأويل بفوائد التنزيل
- 4- الناسخ والمنسوخ
- 5- الأحكام الصغرى
- في الحديث وعلومه
- 1- القسفي شرح موطأ الإمام مالك بن أنس
- 2- عارضة الآخوذى
- 3- المسالك في شرح موطأ مالك
- 4- الثيرين في شرح الصحيحين
- 5- الأحاديث المسلسلات
- 6- الأحاديث السبعيات
- 7- شرح حديث جابر في الشفاعة
- 8- شرح حديث الإفك
- 9- شرح حديث أم زرع
- 10- كتاب مصافحة البخاري ومسلم
- 11- الكلام على مشكل حديث السبحات والحجاب
- في الفقه وأصوله:
- 1- المحصول في أصول الفقه
- 2- الأنصاف في مسائل الخلاف
- 3- نواهي الدواهي
- 2- التمهيد
- كتب الفقه «الفروع»:

1- شَرْحُ غَرِيبِ الرِّسَالَةِ

2- تَبْيِينُ الصَّحِيحِ فِي تَعْيِينِ الدِّيَحِ

3- كِتَابُ سِتْرِ الْعَوْرَةِ

4- تَخْلِيصُ التَّلْخِيصِ

5- تَخْلِيصُ الطَّرِيقَتَيْنِ

مُشْكِلُ الْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ

اللغة والنحو

1- مُلْحِجَةُ الْمُتَفَقِّهِينَ إِلَى مَعْرِفَةِ غَوَامِضِ النُّحَوِيِّينَ وَاللُّغَوِيِّينَ

2- إِلْجَاءُ الْفُقَهَاءِ إِلَى مَعْرِفَةِ غَوَامِضِ الْأَدْبَاءِ

3- رَدُّهُ عَلَى ابْنِ السَّيِّدِ الْبَطْلِيِّ سِي

- تاريخ:

1- تَرْتِيبُ الرُّحْلَةِ لِلتَّرْغِيبِ فِي الْمِلَّةِ:

2- أَعْيَانُ الْأَعْيَانِ:

الجدل والخلافات:

1- الكافي في أن لا دليل على النافي

العقيدة وأصول الدين

1- الْعَوَاصِمُ مِنَ الْقَوَاصِمِ

2- الْأَمَدُ الْأَقْصَى

3- الْمُقْسِطُ فِي شَرْحِ الْمُتَوَسِّطِ

4- الْمُتَوَسِّطُ فِي مَعْرِفَةِ صِحَّةِ الْإِعْتِقَادِ

5- نُزْهَةُ النَّاطِرِ

6- رِسَالَةُ الْعُرَّةِ

- الْعِقْدُ الْأَكْبَرُ لِلْقَلْبِ الْأَصْغَرِ

4- تَفْصِيلُ التَّفْضِيلِ بَيْنَ التَّحْمِيدِ وَالتَّهْلِيلِ

5- كِتَابُ النُّبَوَاتِ

كتب الزهد

1- سِرَاجُ الْمُرِيدِينَ فِي سَبِيلِ الْمُهْتَدِينَ

2- سِرَاجُ الْمُهْتَدِينَ:

كما جمع ابن العربي بين جهاد القلم، وجهاد السنان، فقد كان من العلماء الربانيين العاملين، ولم يصرفه التفرغ للعلم عن تأدية واجبه نحو دينه، وأمته، ووطنه، فحينما تداعت ثغور الأندلس من جهة المشرق، وأخذت تتساقط في أيدي نصارى الأندلس، هبّ رحمه الله يتصدى لهذه الحملات، وتقدم الصفوف لمواجهة الكفار، وحماية الديار، والذود عن بيضة المسلمين، حيث يقول: «وَلَقَدْ نَزَلَ بَنَا الْعَدُوِّ قَصَمَهُ اللَّهُ سَنَةً سَبْعَ وَعِشْرِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ؛ فَجَاسَ دِيَارُنَا، وَأَسَرَ جِيرَتُنَا، وَتَوَسَّطَ بِلَادُنَا فِي عَدَدِ هَالِ النَّاسِ عَدَدُهُ، وَكَانَ كَثِيرًا، وَإِنْ لَمْ يَلْغُ مَا حَدَّوْهُ، فَقُلْتُ لِلْوَالِي وَالْمَوْلَى عَلَيْهِ: هَذَا عَدُوُّ اللَّهِ، وَقَدْ حَصَلَ فِي الشَّرْكِ وَالشَّبَكَةِ، فَلْتَكُنْ عِنْدَكُمْ بَرَكَةٌ، وَلْتُظْهِرْ مِنْكُمْ إِلَى نُصْرَةِ دِينِ اللَّهِ الْمُتَعَيَّنَةِ عَلَيْكُمْ حَرَكَةٌ، فَلْيُخْرِجْ إِلَيْهِ جَمِيعُ النَّاسِ حَتَّى لَا يَبْقَى مِنْهُمْ أَحَدٌ فِي جَمِيعِ هَذِهِ الْأَقْطَارِ فَيَحَاطُ بِهِ فَإِنَّهُ هَالِكٌ لَا مَحَالَةَ إِنْ يَسْرُكُمُ اللَّهُ لَهُ؛ فَعَلَبْتُ الدُّثُوبَ، وَوَجَفَتِ الْقُلُوبُ بِالْمَعَاصِي، وَصَارَ كُلُّ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ تُعَلَبًا يَأْوِي إِلَى وَجَارِهِ، وَإِنْ رَأَى الْمَكْرُوهَ بِجَارِهِ؛ فَإِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، وَحَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ⁽¹⁾.

(1)- أحكام القرآن، ابن العربي، ج 2، ص 517.

وفاته:

أتاه أجله رحمه الله بمُغِيلَةٍ⁽²⁾ في شهر ربيع الأول سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة. مُنْصَرَفُهُ من مَرَأَكُش، وحمل إلى فاس يوم الأحد السابع من ربيع الأول، سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة، حيث صَلَّى عليه صاحبه، أبو الحكم بن حجاج، ودُفِنَ فيها، رحمه الله رحمة واسعة.

وفي الختام نقول: كان رحمه الله تعالى من العلماء البارزين الذين توجت أسماؤهم كتب التاريخ الإسلامي في مجال العلوم والثقافة، ورسخت أقدامهم في مختلف أنواع المعارف الإسلامية، تفنن في العلوم واستبحر فيها، وتقدّم في المعارف وغرف منها، تكلم في جميع الفنون ناقدًا لها، حريصًا على أدائها ونشرها، جمع فأوعى، تنوعت أنماط فكره، وتعددت مواهبه، وجاب حواضر العلم والمعرفة من خلال رحلاته العلمية وتنقلاته الفكرية، كما جمع إلى ذلك كله كرم النفس وحسن العهد وثبات الود ولين الكنف، وآداب وأخلاق مع حسن معايشة.

(2) -ذكرها صاحب الروض المعطار، فقال: ﴿بينها وبين مدينة مستغانم مسيرة يومين، وهذه القلعة على جبل منيف شديد الحصانة بينها وبين البحر خمسة فراسخ، وبها عين ماء"، الروض المعطار في خبر الأقطار، محمد بن عبد المنعم الحَمِيرِي، تحقيق: إحسان عباس، ص470، وينظر: معجم البلدان، ياقوت بن عبد الله الحموي أبو عبد الله، ج5، ص163.

قائمة المصادر والمراجع

- ابن العربي الإشبيلي وتفسيره أحكام القرآن، مصطفى إبراهيم المشي، مطبوعة بدار الجليل بيروت، ودار عمار بالأردن، سنة 1141هـ.
- المقرئ، أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، تحقيق مصطفى السقا ورفاقه، (القاهرة، مط: لجنة التأليف والترجمة والنشر، سنة: 1942م)
- خير الدين الزركلي، الأعلام، ، بيروت، دار العلم للملايين، ط: 5، سنة: 1984م.
- ابن كثير، البداية والنهاية، ، بيروت، مط: دار الكتب العلمية، ط: 5، سنة: 1998م
- صديق حسن خان، التاج المكلل من جواهر مآثر الطراز الآخر والأول، الهند، مط: المطبع الصديقي.
- الذهبي محمد بن أحمد بن عثمان، تذكرة الحفاظ وذيلوله، تحقيق زكريا عميرات، بيروت، مط: دار الكتب العلمية، ط: 1، سنة: 1419هـ، 1998م.

- الحِميري محمد بن عبد المنعم، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: إحسان عباس، بيروت، مط: مؤسسة ناصر للثقافة، طبع على مطابع دار السراج، ط: 2، سنة: 1980 م.
- ابن فرحون المالكي إبراهيم بن علي، الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، تحقيق: د. الأحدي القاهرة، مط: دار النصر للطباعة.
- الذهبي، سير أعلام النبلاء، تحقيق شعيب الأرنؤوط ورفيقه بيروت، مط: مؤسسة الرسالة، ط: 1، سنة: 1405هـ، 1985م .
- ياقوت الحموي بن عبد الله أبو عبد الله، معجم البلدان، بيروت، مط: دار بيروت.